خاتمة.

الحمد لله الذي شرحَ الصَّدر ووضعَ الوِزر فيسَّر الأمر وأبدلَ بعنايته العُسْرَ يُسْرًا، ومدَّ في الأجلِ حتى أُدركِتْ نهاية الشَّوط بهذه الخاتمة التي تمثِّل إضاءة جديدة على البحث بعد رحلته الشَّاقّة.

أَلْهَمَ النَّصُّ القرآنيّ المبدعينَ على مرِّ العصور وغذاهم مِن زاده الطَّيّب وسقاهم مِن نميره الرائق فكان مصدرَ العلوم ومُخْتَلَفَ العلماءِ وسيبقى. وقد يكون في اتخاذ القرآن الكريم ميدانًا لتطبيق نظريّة ما مجازفةً خطرةً؛ لأنَّ النَّصَّ القرآنيّ أغنى مِن النظريّة وأشمل مِن قواعدها وقوالبها؛ لكنَّ ما يُعِينُ هو أنَّ هذا النَّصَّ ينطوي على مفاتيح دَلاليّة تُساعد على الوصول إلى خبايا تكْمنُ فيها أسرار معرفيّة إذا أَحْسَنَ المتدبِّرُ قراءَتها اهتدى إلى أبعد مِمَا كان يَنْشُدُ ووَصَلَ إلى أكثر مِمَا يتصوَّرُ. وهنا تتفتَّحُ آفاق كلَّما نالَ الباحثُ منها وَطَرًا أطلَّتْ أخرى؛ تكشفُ عن جديد وتَعِدُ بالمزيد.

هذه الخصوصيّة لهذا النَّصّ كانت واحدة مِن استنتاجات هذا البحث الذي لو امتدَّ به الزَّمن لكشف عن كثير مِن وحي ذلك الإلهام القرآنيّ، الذي أفاض مِن قبلُ على المُتعلقين باللغة مِن فلاسفة وأصوليين والمشتغلين بها مِن لغويين وبلاغيين.

فقد اعتمد اللغويون المَقامَ في الفصل في ظواهر مخالفة لأصول النِّظام النَّحويّ فالموقف الذي يُستعمل فيه التَّركيب النَّحويّ – عند سيبويه - يمكن أنْ يكون حُجَّةً على صحّة أو خطأ ذلك التَّركيب. لذلك كانت مقاييس اللغة عنده مستمدةً مِن معطيات النِّظام الدَّاخليّ للبناء اللغويّ ومن معطيات السِّياق الاجتماعيّ التي تكتنف الاستعمال اللغويّ. كما أنَّ "ابن جنّي" تعرّض لبنية الخطاب كاملة بالتَّفصيل الدَّقيق؛ لأنَّه رهَنَ التَّركيب اللغوي بطريقة الخطاب وظروفها ومقاصدها. وكذا الحال عند النَّحويين الآخرين؛ فكان لهم قصب السَّبق في النَّصِّ على فكرة المَقام والتَّعامل معها بوصفها قيمة دَلالية جوهريّة في التَّحليل والتَّوجيه النَّحويين، إذْ سبقوا إليها القدماء من علماء العربية والمحدثين من الباحثين المعاصرين. هذا بجانب تحمُّس البلاغيين في إدخال كلِّ وسيلة تُمَكِّن مِن الإفهام وتحقيق المراد مِن الكلام في مفهوم الدَّلالة، وإخضاع ذلك لتأثيراتٍ منها ما تعلّق بالمتلقّي ومنها ما تعلّق بمنشئ الكلام، طالما أنَّ انتظام الألفاظ مترتِّب على انتظام المعاني في النّفوس، التي تُرتِّب معانيها بحسب مقاصدها المرتبطة بالحاجات والمتغيرات.

ولقد كان لهذه الدِّراسة جملة من النتائج والتَّوصيات التي انبثقتْ من غمار البحث، وهي تُمَثِّل إضاءة جديدة عليه قد تتجلّى فيها أهمية البحث ومدى نجاحه في تحقيق أهدافه على نحو الإجمال.

النَّتائج والتَّوصيات.

يمكن الوقوف على أهم نتائج وتوصيات البحث فيما يأتي:-

أولًا: النتائج.

1- تمكَّنَ الباحث بعد متابعة لفظ "المقام" في القرآن الكريم مِن حسم ما لم يحسمه أصحاب المعاجم في الفرق بين "المَقام" و"المُقام"؛ إذْ تبيَّنَ أنَّ المَقام بالفَتْح يُستعمل في المعنويّات، وأنَّ المُقام بالضَّم يُستعمل في الماديّات. والنَّظر في أصليهما اللغويّ (قام مَقامًا، وأقام مُقامًا) ينمُّ على أنَّ هذا التَّحول في المعنى فرضَه تغيُّر المبنى مِن الثلاثي إلى الثلاثي المزيد؛ فانتقلت الدَّلالة تبعًا لذلك مِن الحيّز المعنويّ إلى الحيّز الماديّ.

2- اتضح للباحث أنَّ النَّظريّة السِّياقيّة من أهم النَّظريّات التي تصدتْ لدراسة المعنى، وهي الأكثر تعلّقًا بالنِّظام اللغويّ. فدراسة السِّياق اللغويّ قد تكشف عن دَلالات مختلفة تبعًا لاختلاف القيم الاجتماعيّة والثَّقافيّة، المحيطة بالنَّصِّ الأدبيّ.

3- وجد الباحث أنَّ المَقام لم يلقَ العناية الكافية في كتب المصطلحات مِن جهة تحديد المفهوم، فقد ارتبط ذِكرُه بمصطلح (الحال)، وهو الأكثر تداولًا عند البلاغيين. ولذلك حاول الباحث أنْ يُقارِبَ بين شتاتٍ مِن الآراء لوضع تعريف اصطلاحيّ للمقام مفاده: أنَّ المَقام هو الأحوال الداعية إلى إيراد الكلام على وجهٍ مخصوص وكيفية معينة مِن حيث إنَّه المَنزلة التي حلَّ فيها ذلك الوجه مِن الكلام. وهذه الأحوال نتاجٌ لمؤثرات اجتماعيّة وثقافيّة وتأريخيّة ونفسيّة كثيرة. هو بعبارة أخرى مرجِع الصِّيغ القوليّة المسؤول عن انتظامها في السِّياق اللغويّ.

4- بدت فكرة (المَقام) فكرة محوريّة في جهود البلاغيين، فكان إثبات الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم يتكئ دومًا على مفهوم المَقام؛ باعتبار المناسبة بين السِّياق وأسلوب التعبير.

5- تأكَّد للباحث أنَّ العلاقة بين المَقام والمقال علاقة جدليّة، فإذا كانت المعرفة بالمَقام جوهريّة في فهم المقال فإنَّ المقال يمثِّل الدَّليل على المقام، فلولاه ما تنبهنا إلى المَقام. وهذه العلاقة الجدليّة تبقى قائمة بينهما ما قامت الممارسة اللغوية.

6- اتضح أنَّ المَقامَ المؤثِّرُ الأساس في تحرُّك البنية اللغويّة، فكلَّما تعمَّقَ الغوصُ على العلاقات اللغويّة في التَّركيب اللغويّ تفتَّقتْ غايات جديدة.

7- وجد الباحث أنَّ النَّاحية الدَّلالية في الفاصلة القرآنيّة لم تلقَ العناية الكافية عند جمهور العلماء القدماء والمحدثين؛ لكنَّ هذه الدِّراسة أثبتتْ أنَّ استدعاء الفاصلة يترتَّب في الأساس على مقتضيات مقاميّة. فالقول برعاية رؤوس الآي الذي درج عليه كثير من العلماء والباحثين يَحْصِرُ تأثير الفاصلة القرآنيّة بالجانب الإيقاعيّ، وقد أثبتت هذه الدِّراسة قصورَ هذا الحصر مِن خلال متابعة تحوّلات مقاميّة

أوجبتْ تحوّلات في بنية الفاصلة بالزيادة والحذف، كما أوجبت تحوّل النَّسق القرآنيّ من فاصلة إلى أخرى في كثير من الأحيان.

8- ظهر مِن دراسة التَّنغيم في القرآن الكريم أنّه الظاهرة الصوتيّة الأكثر وضوحًا في التَّفاعل مع المقام، فقد كان حاسمًا في التَّعرُّف على مقامات القول. وهو أصل في تحديد الدَّلالة ، لِمَا له مِن تأثير في المتلقّي. وقد أشار الباحثُ إلى احتمال أنْ يكون الاهتمام بالمَقام عند بعض القُرَّاء سببًا مِن أسباب اعتماد بعض القراءات لأنَّ التَّنغيم جارٍ فيها، كما في قراءة(يَا حَسْرَه عَلَى الْعِبَادِ) بالهاء الساكنة.

9- ظهر للباحث أنَّ أغلبَ المفسَّرين يذهبون إلى إنكار التَّرادف في القرآن الكريم، وهذا ما يتضح من منهج الكثير منهم في تقصِّي مظاهر الإعجاز في لغة القرآن، الذي يستند إلى الوقوف على الفروق الدَّلالية بين ألفاظ وتراكيب القرآن الكريم. فلطالما اجتهدوا في إثبات تناسب الألفاظ مع مواضعها في الآي الكريم؛ ويبرز الإنكار واضحًا عند أصحاب المنهج البلاغيّ. وقد ثَبَتْ للباحث أنَّ استعمال المترادفات في القرآن الكريم خاضع لتأثير المقام.

10- لاحظ الباحث أنَّ هناك كثيرًا مِن التَّجوُّز والتَّوسُّع في تأويل معاني الألفاظ عند الحديث عن المشترك اللفظيّ، والسَّبب في هذا هو الاعتماد المفرط على التَّأويل بحسب ما يُفهم من السِّياق.

11- وجد الباحث أنَّ القول بوجود المساواة أمر يحتاج إلى مزيد من النَّظر فهناك نُدرة في شواهد "المساواة"، تدعو إلى التَّردُّد في الإقرار بوجودها في لغة القرآن؛ فضلًا عن أنَّ الكثير منها يخرج عن مفهوم المساواة كلَّما أعيد النَّظر فيه، فيدخلُ في مفهوم الإيجاز، الذي هو الأسلوب الغالب في لغة القرآن الكريم، حتى كأنَّ هذه اللغة تنبض به، فعبارات القرآن تحتاج إلى بسط في أغلب الأحيان. كما وجد أنَّ من أكثر أساليب التعبير التي اتضحتْ فيها مراعاة المقام أسلوب الإطناب، فهو حاضر في أحوال التَّوصيف والتَّفصيل المرتبطة ببناء المقام.

12- بدتْ العلاقة بين المقام والخطاب أكثر تجلّيًا باعتبارٍ مشتركٍ بينهما هو الحركيّة في كليهما؛ فإذا كان المقام يوجِّه دَلالة الجملة أو ما دونها، فإنَّه في الخطاب لا يَكتفي بذلك بل يُسهم في صناعة دَلالة النَّصِّ؛ وهذا ما تسمح به طبيعة الخطاب كونه حالةٌ غيرَ ثابتة تخضع لتأثير حركة المقام؛ فالعواملُ المصاحبة لإنتاج الخطاب عواملُ متغيّرة، وينبغي أنْ تكون كذلك.

13- تبيَّن للباحث أنَّ الاستجابة لتنوع مقاصد الخطاب المتغيّرة بتغيّر زمان المخاطَب تعود للطبيعة المتحرِّكة في الخطاب القرآنيّ. وهذا معادل للقول بأنَّ لغة القرآن صالحة لكلّ زمان، بسبب ما تتمتع به من انفتاح دَلاليّ لاسيما في المتشابه مِن آياته، وهو انفتاح يتَّسع كلّما تقوَّضَ وجودُ القرائن المقيِّدة لمقصد الخطاب. على أنَّ ذلك لا يَشمل المُحكم من الآيات، كما أنَّه لا يعني خفاء الدَّلالة لأنَّ خفاءَها موجبٌ للانحراف عن مقاصد الخطاب.

14- تحقَّقَ لدى الباحث أنَّ استعارة المقامات المُنقضية لمقالات جديدة أمرٌ واردٌ، وهو لا يتعارض مع فكرة: أنَّ المقالَ نتاجُ الظروف الحافَّة به. فقد يَحْسُن أنْ يُساق المقالُ محمولًا على التَّعريض في كثير من الأحيان لاسيما إذا كان المتلقّي ذا حسٍّ لغويٍّ مرهفٍ.

15- وجد الباحث أنَّ ارتباط المقامات المُنقضية بمقامات معاصرة إنَّما يكون في نقطة اتفاق أهداف المقال، فتترتَّب على ذلك استعارة المقام المنقضي لمقام جديد. وصحَّة هذه الاستعارة مستمدَّة مِن تقاربٍ بين الموقفين: المنقضي والمعاصر، لتقاربٍ بين القيم الحضاريّة الحافَّة بهما.

16- رصد الباحث ظاهرة بارزة في خطاب الله تعالى للنبيّ الأكرم (صلَّى الله عليه وآله) هي ظاهرة التَّلقين مِن خلال فعل الأمر "قلْ"، الذي استُعمل زهاء ثلاثمائة مرَّة. وهذا الاستعمال مِن الخصائص المميزة في لغة القرآن. وقد تبيَّنَ أنَّ له ارتباطًا كبيرًا بمقاصد الرِّسالة التي يحملها النَّصُّ، فضلًا عن إنَّه كاشفٌ لكثيرٍ مِن الظروف المحيطة به. فاستعماله أتاح الفرصة لإظهار التَّجاذُبات الكثيرة التي أحاطت بالرِّسالة الخاتمة، كونه مثَّل مَعْبَرًا للمراجعة بين النبيّ الأكرم ومتلقِّي الرِّسالة.

17- ومِمَا اتضح أيضًا أنَّ الأعمَّ الأغلبَ مِن خطاب النبيّ الأعظم (صلَّى الله عليه وآله) كان مع الله تعالى و لم يرد مِن تحاوره مع غير الله تعالى إلّا القليل؛ وهذا خلاف ما كان عليه الأنبياء والرُّسل السابقين مِن خطاب مع أُممهم وأقوامهم.

18- امتاز خطاب المؤمنين بالوفرة فقد بلغَ الخطابُ المباشرُ بعبارة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تسعةً وثمانين خطابًا، فضلًا عن خطابات أخرى بغير هذه العبارة، فتعدَّدت مقامات خطاب المؤمنين، والجاري فيها هو التَّوجيه والتَّربية.

19- لم يُتَوَجَّه للمشركين في زمن رسول الله بالخطاب المباشر إلّا نادرًا، فقد جاء خطابهم متضمَّنًا في خطاب الله تعالى لرسوله الكريم (صلّى الله عليه وآله)، بوصفه المُبَلِّغ عن الله تعالى.

20- نحا خطاب "بني آدم" في القرآن الكريم منحًى أخلاقيًّا في أغلب الأحيان لتثبيت قيمٍ معينة وللكفِّ عن أخرى، ما يعني أنَّ القرآن الكريم يمثِّل واقعًا للهدف الرِّساليّ الأساس وهو انتظام البَشر في نظام اجتماعيّ يقوم على بنية أخلاقيّة رصينة. في حين نحا منحى نفسيًّا في خطاب "الإنسان" بالتَّعرُّض لطبائعه وتكوينه النَّفسيّ.

ثانيًا: التوصيات.

1- رصدَ الباحث أنَّ في كتاب "كشّاف اصطلاحات الفنون" للتهَانَويّ وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري إحاطةً جيدةً قد تساعد على الانصراف لدراسة الدَّلالة دراسة اصطلاحية في بحث مستقلّ، ويَعْضُدُ ذلك جهود أصحاب كتب المصطلحات.

2- وجد الباحث أنَّ بحث علاقة المَقام بالدَّلالة عند النَّحويين يمكن أنْ يفيَ بدراسة قيّمة بمنهج تحليليّ يَعرِضُ لاختلاف النَّحويين في توجيه الدَّلالة في التركيب النَّحويّ، ولهم في ذلك ما يكفي؛ إذْ سلك

النَّحويون سبيل المَقام للوصول إلى الدَّلالة في التَّركيب النَّحويّ؛ أو لحلّ بعض المعضلات النَّحويّة التي تتنازع فيها الوجوه؛ أو لتسويغ بعض الظَّواهر المُخالفة لأنظمة النَّحو وقبولها.

3- يوصي الباحث باعتماد النَّظريّة المقاميّة في تشذيب شجرة المشترك اللفظيّ بتحرّي توزيع معاني الكلمة على حقول دَلالية تُراعي الجامع بين معاني الحقل الواحد، وهذا ما يحتاجه البحث في تأثُّر الدَّلالة بمناسبتها وظروف إنتاجها. وقد وَجَدَ الباحث أنَّ تأثير المقام في المشترك اللفظيّ في القرآن الكريم جدير بدراسة مستقلة، لوفرة مادته من جهة، ولاتساع قاعدة التَّنظير له لاسيما، عند الأصوليين واللغويين من جهة أخرى.

4- وجد الباحث أنَّ ما يُميِّز المقامات المعاصرة هو أنَّ تحصيلها أيسر وكمَّها أكبر، ما يُمَكِّن الباحث فيها مِن التوسُّع إنْ شاء؛ ولذلك فإنَّ جهدًا بحثيًّا مستقلًّا قد يُسفر عن دراسة قيِّمة تختصُّ بالمقامات المعاصرة للنَّصِّ القرآنيّ الشَّريف.

5- وجد الباحث أنَّ البحث في المقامات المفتوحة ينصرف إلى ما هو عامّ في الخطاب القرآنيّ، بحيث يمكن تعميم دَلالته على المُخاطب أينما كان وفي أي زمان ومِن أي جنس ومِلَّة وشِرعة. وعليه يمكن أنْ يتشكَّل مقام الخطاب المفتوح بتأثير قيَمٍ متفاوتةٍ بحسب الزَّمان والمكان ونوع الثَّقافة المُنتَجَة فيهما. وقد بدا للباحث مِن خلال الوقوف على الخطاب العامّ في القرآن الكريم أنَّ هذا الخطاب يتسعُ لبحوث كثيرة لكنَّه يتطلَّب تنوّعًا في الأدوات البحثيّة وفي اطلاعات الباحث الثَّقافيّة.

6- يوصي الباحث باعتماد الرؤية المقاميّة في فَرْزِ ما اشتبك مِن رواياتٍ تعلّقتْ بالنَّصِّ القرآنيّ وبالنَّصِّ التأريخيّ عمومًا، بانتخاب ما ناسبَ منها سلامة النَّصِّ مِن الوجوه اللغويّة ووافق ظروفه الاجتماعيّة. فقد تبيَّن أنَّ تكوين مقام النَّصِّ التأريخيّ يحتاج إلى رَوِيَّة في استقصاء المؤثرات المحيطة به؛ للوصول إلى التوافق بين الدَّلالة ومقامها.

وآخرُ دعوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العالمين.